أعيادنا الدينية وكيف نحييها

للأستاذ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

قضت السنن الإلهية فى تكوين الجماعات الانسانية ، أن يكون لكل أمة ذات تاريخ مجيد ومجد تليد ، أعياد تستجم فيها من عناء العمل ، وإجهاد الفكر ، وتستروح بها نسيم الحياة الهادئة المطمئنة ، المليئة بأنواع الصفاء وألوان السرور المباح ، لتستعيد بذلك حيويتها ، وتستجمع قوتها ، وتستقبل أعمالها بهمة ونشاط ، وقوة وثبات ، وعزيمة ومضاء ، لايتطرق إليها الوهن ، ولا يعتريها كلل أو سأم .

ولهذا وحده وجدت الأعياد فى الأمم التى أخذت بأوفى نصيب من الحضارة والعمران . ولقد كان للعرب قبل الاسلام أعياد ومواسم ، غير أنها لم تكن للراحة والاستجمام ، ولا للسرور وإظهار النعم ، بل كانت تقام إما لتعظيم الأوثان والأصنام ، وإما لاذكاء نار العداوة والحقد للأخذ بالثار . فكان ضررها أكبر من نفعها ، وشرها أكثر من خيرها . فلما جاء الإسلام ، واستظل العرب بلوائه الخفاق — أبدلهم الله بهذه الأعياد الوثنية ، والمواسم الجاهلية ، عيدين عظيمين مباركين : عيد الفطر وعيد النحر . شرعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى لا ينطق عن الهوى فى السنة الثانية من الهجرة . روى أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما " فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قد بدلكم خيرا منهما : يوم الأضحى و يوم الفطر " .

وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأحاديث الصحيحة ، على إحياء ليالى هذين العيدين ، وإظهار الفرح فى أيامهما الفاضلة .

ولما كنا الآن نستظل بظلال عيد الفطر المبارك ، ناسب أن نخص بمقالنا هذا العيد السعيد . روى الإمام الطبرانى عن سعيد بن أوس الأنصارى ، عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا : أغدوا يا معشر الصائمين إلى رب كريم ، يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم ، وأطعتم ربكم فاقبضوا جوائزكم . فإذا صلوا نادى مناد ألا إن ربكم قد غفر لكم ، فارجعوا راشدين إلى رحالكم ، فهو يوم الجائزة ، ويسمى ذلك اليوم فى السماء يوم الجائزة " .

فانظروا إلى إكرام الله تعالى هذه الأمة بهذا العيد . العيد الذى يأمر فيه ملك الملوك بأن تصطف ملائكة الرحمة والبشارة ، على أفواه الطرق المؤدية إلى المساجد ، لتحية الصائمين

المعيدين ، ويبشرهم بالثواب الجزيل والخير الكثير ، جزاء صيامهم وقيامهم ، وبأنهم إذا رجعوا من صلاة العيد إلى ديارهم ، رجعوا راشدين طاهرين من الذنوب والآثام . فنعمت الجائزة ، ونعم المجيز الكريم . سبحانه لا نحصى ثناء عليه !

أما كيف نحيي أيام العيد ، فقد سن الإسلام لذلك سننا ، هي أرقى ما وصل إليه عقل البشر فى تدعيم النظام الاجتماعى ، وبناء الأسر على أساس من المحبة والاخاء ؛ فقد كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يأمر المسلمين والمسلمات بالخروج فى صبيحة العيد إلى المسجد الحرام ، فلا يبقى رجل ولا امرأة ، ولا صبي ولا صبية ، إلا خرج فى أجمل حلة وأكمل نظام . حتى إذا شهدوا صلاة العيد ، عادوا من طريق آخر غير الطريق الذى سلكوه ؛ ليطلع أهل الطريقين على شوكة المسلمين وعظمتهم ، وليظهر للعيون شأن هذه القلوب المتحدة ، والنفوس الطائعة الراضية الزاكية ، التى تصافت أفرادها وتعاونت وتآزرت ، حتى صارت كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وما زال المسلمون — بحمد الله — يأخذون ببعض هذه السنة إلى يومنا هذا . وذلك مظهر رائع من مظاهر الألفة والاتحاد ، وسبيل واضح إلى إظهار القوة والمنعة وعزة الجانب . ولم يهمل الإسلام الناحية الصحية البدنية ، فقد جعل من سنة العيد أن يخرج كل فرد من بيته نظيف البدن ، نقى الثوب ، جديد الحلة إذا استطاع ، متعطرا بما تيسر له من أصناف العطور الزكية ، والروائح الشذية ، ليتلاقى المسلمون وهم أصفياء القلوب ، نظاف الأبدان ، أذكياء الأرواح .

أما الناحية الاجتماعية فى العيد ، فقد حاطها الاسلام بسياج من العطف والرحمة ، وخصها بشيء من السرور والانشراح البريئين من كل حرج و إثم . فهو لذلك :

(أولا) شرع زكاة الفطر على كل مسلم ومسلمة . تؤخذ من الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، لتوزع على المحتاجين من فقراء المسلمات والمسلمين ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : " أغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم " . ولذلك شدد فى وجوب إخراجها ، وتوعد القادرين عليها بألا يقبل صيامه عند الله ، إلا إذا أداها كاملة غير منقوصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوم رمضان معلق بين السماء والأرض ، لا يرفع إلا بزكاة الفطر " . فأى تعاطف وتواصل خير من هذا ؟ بل أى بر ورحمة فى الشرائع الوضعية يقرب مما شرعه الإسلام ، جمعا للقلوب ، وشفقة على الضعفاء ، وتزكية وتطهيرا للأغنياء ؟

أوجب على المسلمين أن يتمتعوا بالفطر فى هذا اليوم ، وحرم عليهم صيامه ، تعويدا لهم على الطاعة والامتثال ، وطردا للسآمة والملال ، وأحل لهم الطيبات ، وحضهم على إظهار النعم والتحلى بأجمل اللباس ، وطلب إليهم التزاور وصلة الأرحام ، والتلطف إلى الأصدقاء والخلان ، وأباح لهم تعاطى أنواع اللهو المباح ، كسماع الأغانى والموسيقى والمزمار ، ترويحا للنفس ، ولإدخال السرور على القلب . ففى الحديث الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىّ أبو بكر رضى الله عنه ، وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان

بما تقولت به الأنصار يوم بعاث ، وليستا بمغنيتين (معنى تقاولت : تفاخرت بقول الشعر، وبعاث موضع قرب المدينة، ويوم بعاث من أيام الجاهلية بين الأوس والخزرج، وقولها : ليستا بمغنيتين أى ليس الغناء لهما حرفة وصناعة) . فقال أبو بكر : أمزمارة الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! وذلك يوم عيد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا". وفى رواية أخرى : ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ! فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "دعهما" فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب. فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإما قال: تشتهين تنظرين ؟ فقلت نعم، فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول "دونكم يا بنى أرفدة" حتى إذا مللت قال حسبك ؟ قلت نعم. قال فاذهبى (الدرق التروس تتخذ من جلد بلا خشب لتتقى بها الحراب، وبنو أرفدة جنس من الحبشة) .

وفى رواية البخارى : " دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد ، وتلك الأيام أيام منى " .

من هذا الحديث ونحوه أخذ العلماء كالإمام الغزالى وغيره جواز الاستماع باللهو البرىء، والاستماع لصوت الغناء ، إذا لم يقترن كل منهما بمحرم من المحرمات التى بينتها الشريعة الغراء . وقد قال صلى الله عليه وسلم " الحلال بين ، والحرام بين " .

ولا يظن ظان أنى أفتى الآن بجواز تعاطى اللهو ، واستماع الغناء بلا قيد ولا شرط ، أو بقيد خفيف وشرط سهل ! بل الحكم الشرعى فيه تفصيل ، وبيانه يحتاج إلى شرح وتطويل . وربما عدت إلى هذا البيان فى مقال إن شاء الله ، لأنى أعرف أن كثيرا من المسلمين والمسلمات فى أشد الحاجة إلى معرفة حكم الشريعة الإسلامية، فى سماع الغناء وآلات الطرب بالتفصيل . وبخاصة بعد أن ذاع وشاع اقتناء المذياع (الراديو) حتى كاد لا يخلو منه بيت فى المدائن ، وحتى تسلل فى الريف جهارا إلى القرى والدساكر .

وبعد فإن الشريعة الحنيفية السمحة لم تحرم على المسلمين شيئا من أنواع الطيبات . ومنها الغناء المباح واللهو البرىء، وإن ما يفعله المسلمون فى أعيادهم من اللهو غير المحرم، لا تنكره شريعة الإسلام . وهى الشريعة التى تساير روح التقدم والرقى الخلق فى كل زمان ومكان !

جعلنا الله من المهتدين بهديها، الفاهمين لأسرارها، المستمسكين بعروتها التى لا انفصام لها . ونسأله تعالى من فيض إحسانه وواسع رحمته ، أن يعيد إلى العالم راحته وطمأنينته ، وأن ينشر عليه لواء الامن والسلام ، وأن يوفق المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى العمل لما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وأن يحفظ كنانته فى أرضه من عوادى الزمن ، وشرور الفتن والمحن، وأن يغمر أرضها وبنيها بالخصب والنماء ، والرخاء والصفاء ، فى ظل الملك الدستورى الصالح ، صاحب الجلالة ، الملك فاروق الأول ، أيده الله بنصره، وأبقاه ذخرا للدين وللوطن ، إنه سميع مجيب الدعاء .

عبد الحميد عنتر

أستاذ بكلية اللغة العربية